النزول بالحجر:

وسار الجيش حتى بلغ الحِجْرَ، وبها أطلالٌ لمنازل ثمود منقورة فى الصخر. هنالك أمر رسول الله بالنزول، فاستقى الناس من بئرها. فلمَّا راحوا قال لهم: لا تشربوا من مائها شيئًا ولا تتوضَّئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه الإبلَ ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجنَّ أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ذلك أن المكان لم يكن أحدٌ يقربه، وكانت تعصِف فيه أحيانًا عواصف الرمل تطمر الناس والإبل. ولقد خرج رجلان على خلاف أمر الرسول، فاحتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال. فلما أصبح الناس ألفَوْا هذه الرمال قد طمت البئر فلم يبق بها ماء، ففزعوا خيفة الظمأ، وقدَّروا هول ما بقى من طول الطريق. وإنهم لكذلك إذ مرَّت بهم سحابة أمطرتهم، فارتووْا وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع، وطار أكثرهم سرورًا، وأقبل بعض منهم على بعض يقولون إنها معجزة. أمَّا آخرون فقالوا: إنما هى سحابة مارَّة.

انسحاب الروم:

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدًا تَبُوك، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجَّهت إلى حدودها ليحتمى داخل بلاد الشام فى حصونها. فلما انتهى المسلمون إلى تَبُوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونُمى إليه ما أصابهم من خوف، لم ير محلًّا لتتبُّعهم داخل بلادهم.

وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد. وكان يُوحَنَّا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود. ولقد وجَّه إليه النبىّ رسالةً أن يذعن أو يغزوه فأقبل يوحنَّا وعلى صدره صليب من ذهب، وقدَّم الهدايا والطاعة، وصالح محمدًا وأعطاه الجزية، كما صالحه أهل الجَرْبَاء[1] وأذرُح[2] وأعطوه الجزية.

معاهدة أهل الحدود:

وكتب رسول الله ﷺ لهم كتب أمْن، هذا نص أحدها – وهو ما كتب ليُوحَنا: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبىّ رسول الله ليُوحَنة بن رؤبة وأهل أَيلةَ سُفنهم وسيَّارتهم فى البر والبحر لهم ذمَّة الله ومحمد النبىّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيِّب لمحمد أخذُه من الناس. وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماءً يَرِدُونه ولا طريقًا يريدونه من برّ أو بحر». وإيذانًا بالموافقة على هذا

(١) الجرباء: قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام.

(٢) أذرح: بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز، وهى قريبة من الجرباء.

العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية، بعد أن اتُّفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلثمائة دينار فى كل عام.

غزوة ابن الوليد دومة:

لم يبق محمد ﷺ فى حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه، وبعد أمْنه عودَة الجيوس البزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أُكَيْدِر بن عبد الملك الكِنْدىّ النصرانىّ أمير دُومَةَ[1]، ومعاونته. جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته. ولذلك بعث النبىّ إليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وانقلب بجيشه راجعًا إلى المدينة. وأسرع خالد بالانتقاض على دُومة فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مُقْمِرة ومعه أخ له يسمى حسَّان يطاردان بقر الوحش. ولم يلق خالد مقاومةً تذكر. فقتل حسَّانَ وأخذ أكيدر أسيرًا وهدَّده بالقتل إن لم تفتح دُومة أبوابها. وفتحت المدينة الأبوابَ فداءً لأميرها. وساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وَسْق من بُرّ وأربعمائة درع، وذهب بها ومعه أُكَيْدر حتى لحق بالنبىّ فى عاصمته. وعَرض محمد ﷺ الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفًا.

عودة المسلمين إلى المدينة:

لم يكنِ عود محمد ﷺ على رأس هذه الألوف من جيش العُسْرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهيِّن. فلم يُدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أَيْلة والبلاد المجاورة له، ولم يقيموا كبير وزن لما حقَّقه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم، بل كان كل الذى نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة، وتحمَّلوا فى قطعها ما تحملوا من الأذى، ثم عادوا لم يغنموا ولم يأسِروا، بل لم يقاتلوا: وكلُّ الذى فعلوا أن أقاموا بَتبُوك قرابة عشرين يومًا. فهل لهذا قطعوا الصحراء فى شدَّة القيظ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها؟! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ﷺ: ونَقل من ملأ الإيمان قلوبهم نبأهم إليه. فأخذ المستهزئين بالشدَّة حينًا وباللين حينًا، والجيش يسير قافلًا إلى المدينة ومحمد يحفظ النظام فى صفوفه. حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها؛ لحقه ومعه أكيدر، وما حمل من دُومة من إبل وشاة وبُرّ ودروع. وعلى أكيدر حُلَّة من ديباج موشًّى بالذهب بُهت أهل المدينة لمرآها.

المتخلفون:

هنالك اضطرب الذين تخلَّفوا عن اتباعه اضطرابًا ردَّ المستهزئين إلى صوابهم. جاء المتخلِّفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب. وأعرض محمد عما صنعوا تاركًا لله حسابهم. لكن ثلاثة

(١) دومة: هى المعروفة بدومة الجندل، على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة.

صدَقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم واعترفوا بذنبهم. هؤلاء الثلاثة هم كعْب بن مالك، ومُرارة ابن الرَّبيع، وهلال بن أميَّة. وهؤلاء الثلاثة أمر محمد ﷺ فأعرض المسلمون عنهم خمسين يومًا لا يكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة. ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا عنهم ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

الشدة على المنافقين – إحراق مسجد الضرار:

من يومئذ بدأ محمد ﷺ يشتد فى معاملة المنافقين شدّة لم يألفوها من قبل، ذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطرًا يُخْشى منه ويجب تلافيه وعلاجه. ولم يقم بنفس محمد ريب، بعد أن وعده ربّه لينصرنّ دينه وَلَيُعْلِيَنّ كلمته فى أنهم سيزدادون من بعدُ أضعاف زيادتهم اليوم، وعند ذلك يصبح المنافقون خطرًا عظيمًا. ولقد كان له من قبلُ، حين كان الإسلام محصورًا بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين. أمّا وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعًا، وهاهو ذا يشارف الانتقال منها فكلُّ تهاون مع المنافقين شرٌّ تخشى مغبته، وخطرٌ ما أسرع مايستشرى إذا لم تُجْتَثَّ جُرْثرمته. بنى جماعة مسجدًا بذى أوان، بينه وبين المدينة نحو ساعة؛ وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرّفوا كلام الله عن مواضعه. وأن يفرّقوا بذلك بين المؤمنين ضِرَارًا وكفرًا. وطلبت هذه الجماعة إلى النبيّ أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه. وكان طلبهم هذا قبل تَبُوك. فاستمهلهم حتى يعود. فلما عاد وعرف أمر المسجد وحقيقة ما قُصِد إليه من إقامته أمر بإحراقه، فضرب بذلك مثلًا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانزوَوْا، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم.

على أن عبد الله لم يُعَمَّرْ بعد تبوك غيرَ شهرين مرض إثرهما ومات ومع أن الحقد على المسلمين قد كان يأكل قلبه منذ نزل النبيُّ المدينة؛ فقد آثر محمد ألا ينال المسلمون ابن أبَيّ بسوء. ولم يلبث النبيّ حين دُعيِ للصلاة عليه لمّا مات أن صلى وقام على قبره إلى أن دُفن وفرِغ منه. وبموته انهار ركن المنافقين. وآثر من بقى منهم أن يُخلص لله توبتَه.

تبوك خاتمة الغزوات:

بغزوة تبوك تمّت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها، وأمِن محمد كلَّ عادية عليها، وأقبل سائر أهلها

(١) سورة التوبة آيتا ١١٧ و١١٨.

وفودًا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبيّ عليه السلام ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطًا بما أفاء الله عليه.

غبطة النبي ﷺ بإبراهيم:

وكان ابنه إبراهيم قُرَّة عينه له ستة عشر شهرًا أو ثمانية عشر شهرًا، فكان إذا فرغ من استقباله الوفود، ومن القيام بأمر المسلمين، ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعًا لهم، اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذى ظل يترعرع وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضوحًا مما يزيد أباه له حبًّا وبه تعلقًا. وخلالَ هذه الأشهر جميعًا كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التى أهداها النبى إليها.

ولم يكن تعلّق محمد ﷺ بإبراهيم لغاية فى نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه؛ فقد كان عليه السلام فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه؛ بل كان يقول: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، ماتركناه صدقة». إنما هى العاطفة الإنسانية فى أسمى معانيها؛ العاطفة الإنسانية التى بلغت من السمو فى نفس محمد مالم تبلغه فى نفس أحد غيره؛ العاطفة الإنسانية التى جعلت العربى يرى فيمن يخلفه من الذُّكْران صورة من صور الخلود– هذه العاطفة الذى جعلت محمدًا يخلع على إبراهيم كل هذا الحب؛ ويرمُقه من العطف بما لا عطف بعده. ولقد زاد هذه العاطفة رقّة وقوة فى نفسه أن فقد ولديه القاسم والطاهر وهما ما يزالان طفلين فى حجر أمهما خديجة، وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجًا وأمهات؛ فلم تبق له منهن غير فاطمة. هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدفنهم بيده تحت صفائح الثرى، تركوا فى نفسه قرحة ألم اندملت بمولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاء وأملا؛ وكان حِلًّا له أن يمتلئ بهذا الأمل غبطة واستبشارًا.

مرض إبراهيم:

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التى ذكرنا. فقد مرض إبراهيم بعدها مرضًا خيف منه على حياته، فنُقل إلى نخل بجوار مَشْرَبة أم إبراهيم، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرّضانه. ولم يطل بالطفل المرض. فلما كان فى الاحتضار وأخبر النبىّ بأمره، أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدّة ألمه، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التى تقوم المشربة اليوم مكانها. فوجد إبراهيم فى حجر أمه يجود بنفسه، فأخذه فوضعه وقلبُه يجف ويده تضطرب وقد ملك الحزن عليه فؤاده، وبدت صورة الألم على قَسمات وجهه. وضعه فى حجره وقال: «إنا يا إبراهيم لا نُغنى عنك من الله شيئًا». ثم وجم وذرفت عيناه، والغلام يجود بنفسه، وأمه وأختها تصيحان فلا ينهاهما رسول الله!. فلما استوى إبراهيم جثمانًا لا حراك به ولا حياة فيه، وانطفأ

بموته ذلك الأمل الذى تفتحت له نفس النبىّ زمنًا، زادت عينا محمد تهتانًا وهو يقول: «يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقٌّ، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحَق بأوّلنا، لَحزِنا عليك أشد من هذا». وبعد أن وجَم هنيهة قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون».

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الإمعان فيه، فذكروه بما نَهَى عنه؛ فقال: «ما عن الحزن نَهيْتُ وإنما نَهيْتُ عن رفع الصوت بالبكاء. وإنّ ماترون بى أثر مافى القلب من محبة ورحمة. ومن لم يُبْدِ الرحمة لم يُبد غيره عليه الرحمة» أو كما قال. ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته، ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف، وطلب إليهما أن تهوّنا عليهما قائلًا: «إن له لَمُرْضِعًا فى الجنة» ثم إن أم بُرْدة غسلته – أو غسله الفضل بن عباس، فى رواية أخرى – وحُمِل من بيتها على سرير صغير، وشيعه النبى وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دُفن بعد أن صلى النبى عليه. فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوّى عليه بيده ورشّ الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: «إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى. وإن العبد إذا عمل عملًا أحب الله أن يُتقنه».

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس: فرأى المسلمون فى ذلك معجزةً وقالوا إنها انكسفت لموته. وسمعهم النبى: أتُرَى فرط حبه لإبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزى بسماع مثل هذه الكلمة، أو يسكت على الأقل عنها، أو يعذِر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة؟ كلا! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلّون فى الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يُخرجهم الحزن عن رشادهم، فهو لا يليق بالنزيه الحكيم، فما بالك بالرسول العظيم!. لذلك نظر محمد إلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تَخْسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة». آيّة عظمة أكبر من ألّا ينسى الرسول رسالته فى أشدّ المواقف التى تملأ نفسه بالفجيعة والهول!. لقد وقف مَنْ تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الإجلال والإعظام، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عِرفانهم بصدق رجل لا يرضى فى أدق المواقف إلّا الصدق والحق.

تُرى ماذا كان شعور أزواج النبى بفجيعته فى إبراهيم وحزنه الشديد عليه؟ أمّا هو فتعزّى بفضل الله، وبمتابعته أداء رسالته، وبازدياد الإسلام انتشارًا فى هذه الوفود التى كانت ما تفتأ تتوارد إليه من كل صوب؛ حتى لقد دُعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود، وهى السنة التى حج أبو بكر فيها كذلك بالناس.